الفصل الرّابع

يعقـــوب فى بيت ايـــل

١ ـ حلم يعقوب : من الطبيعى أن تؤدى خديعة يعقوب لأخيه « عيســو » ، على نحو ما تصـــور فى حكاية الكتاب المقدس ، الى حدوث جفوة بين الأخوين • وقد تألم الأخ الأكبر نتيجة احساســه بخطأ لا يحتمل ؛ ودفعته طبيعته العاطفية لأن ينتقم من أخيه الأصغر الذى تمكن بحذقه أن يسلبه حقه فى الارث • اما يعقوب فقد خاف على حياته من أخيه ، كما شـــاركته أمه التى تواطأت معه فى جريمتــه ، مخاوفه • ومن ثم فقد استقر رأيها على أن تدع يعقوب يرحل الى مكان آمن ريثما يهدأ غضب أخيه ، الذى كان رغم غضبه ، متسامحا كريما • ورأت الام أن ترسل يعقوب الى خاله « لابان » فى « حران » • وقـــد أثار فى نفسها هذا القرار ذكرى موطنها الذى يقع فيما وراء النهـــر الكبير ، حينما زفت الى إسحق وهى فى أوج جمالها • وربمـــا مســت هذه الذكرى شغاف قلبها المادى القاسى على نحو ما • ولكم تذكرت فى متعة بالغة ، تلك الامسية البهيجة التى ترجلت فيها عن جملها لتقابـــل شخصا يمشى بخطى وئيدة بين الحقول ، ذلك الشخص الذى أصـــبح زوجها فيما بعد • والآن لقد أصبح هذا الشـــخص الذى كان مكتمـــل الرجولة ، كفيفا خرفا طريح الفراش • ولم تكن هذه الأم قد أبصرت وجهها من قبل الا فى تلك الأمسية التى هيجت ذكراها ، عندما نظرت الى البئر ، فانعكست على صفحته صورة وجه مجعد وشعر أشـــعث ، ولم تكن هذه الصورة سوى شبح جمالها السالف وخياله • حســـنا كم

تمضى الأيام كانها البرق الخاطف ! ولكن ربما كان فى عودة ابنها من وطنها مصطحبا زوجة شابة حسناء ترى فيها صورة شبابها الضائع ، سلوى لها عن نهب الأيام • هذه الأفكار ربما راودت الأم المعجبة بنفسها وهى تودع ابنها ، على الرغم من أنها لم تعبر له عن هذه المشاعر ، اذا كنا نعتمد على ما كتبه الكاتب اليهودى •

ورحل يعقوب متخذا طريقه من بلدة « بئر سبع » التى تقع عند مشارف الصحراء فى أقصى جنوب بلاد الكنعانيين متجها الى الشمال مارا بالضرورة بمرتفعات أرض الميعاد الجرداء • واستمر فى طريقه شمالا فى طريق وعر شاق حتى وصل الى مكان ما والشمس أوشكت على الغروب • فقرر أن يبيت فى هذا المكان ، اذ كان مجهدا وقد تقرحت قدماه من السير ، كما كان الظلام قد أوشك على مهاجمته • وقد كان هذا المكان منعزلا • فأخذ يصعده تدريجيا حتى بلغ قمته التى تعلو فوق سطح البحر — بمقدار ثلاث آلاف قدم • وكان الهواء حادا لافحا ، فنظر من حوله ، فرأى ، حسبما أتاحت له الظلال المتساقطة ، قفارا تتناثر فيها الأحجار والصخور الرمادية التى كانت تتراكم فى بعض الاحيان مكونة شكل أعمدة غريبة ، ونصبا تذكارية وأضرحة ، بينما كان يلوح على البعد تل قفر معتم تراءت جوانبه فى شكل شرفات حجرية بعضها فوق بعض • لقد كان منظرا موحشا لا يغرى المسافر بأن يجيل النظر فيه طويلا • وعند ذاك جلس يعقوب وقد أحاطت به الصخور الضخمة من كل جانب ، ثم وضع رأسه على احدى هذه الصخور كأنها وسادة ، وراح فى نوم عميق • فرأى فى منامه كأنه يبصر سلما يصل ما بين الأرض والسماء ، وكانت الملائكة تتحرك عليه صاعدة هابطة • ثم أبصر الرب يقف بجانبه ويعده بأن الارض التى تحيط به جميعا ستصبح له ولذريته من بعده • عند ذاك استيقظ من نومه مذعورا وهو يقول : « حقا ان الرب فى هذا المكان وأنا لم أعلم • وشعر بالخوف وقال : ما أرهب هذا المكان • ما هذا الا بيت الله وهذا باب

السماء » (١) • وظل يعقوب راقدا وهو يرتجف حتى أشرف الصباح على ذلك المكان المنعزل ، وقد كشف مرة أخرى عن المنظر المتجهم لتلك القفار الصخرية والصخور الرمادية التى كان بصره قد وقع عليها بالأمس • ثم هب يعقوب واقفا وأخذ الحجر الذى يسند عليه رأسه ونصبه فى هيئة عمود ؛ وصب عليه الزيت ، وأطلق على هذا المكان اسم « بيت أيل » أى بيت الرب • ونحن نفترض أنه على الرغم من هول الرؤيا التى رآها يعقوب ، فقد استأنف رحلته فى ذلك اليوم بروح عالية بسبب الوعد الذى وعده به الرب • بل ان المنظر الطبيعى نفسه تغير فى أثناء سيره وبدأ يأخذ مظهرا أكثر بهجة وانشراحا منسجما فى ذلك مع آماله الجديدة التى يمتلىء بها صدره • وترك يعقوب وراءه مرتفعات بنيامين الجرداء وهبط الى أرض « افرايم » المنخفضة الخصبة • واستغرق سيره أربع ساعات الى أن هبط الى الوهدة الجميلة حيث تبدو جوانب التلال متدرجة حتى القمة ، وحيث تنمو أشجار الزيتون وأشجار السرخس التى تكسو الصخور البيضاء . وحيث يزين أطرافها نبات الزعفران ونبات بخور مريم الابيض والبنى ؛ بينما كان طائر النقار وأبو زريق والبوم الصغير يضحك أو ينقر أو يصفر بين فروع الاشجار ، كل حسب طبيعة صوته • وعند ذاك شق يعقوب طريقه بقلب مفعم بالأمل الى البلد البعيد •

٢ ــ الأحلام التى تتمثل فيها الآلهة :

ان حكاية حلم يعقوب قد حكيت فيما يبدو ، وكما لاحظ النقاد ذلك . لكى تفسر قدسية « بيت إيل » ، ذلك المكان البالغ فى القدم الذى ربما كان يقدسه سكان أرض كنعان الأصليون ؛ قبل أن يغزوها العبريون ويستقروا فيها بزمن طويل • والاعتقاد فى أن الآلهة تتمثل للانسان فى رؤياه وتكشف له عن ارادتها ، اعتقاد كان ينتشر فى الزمن القديم • ووفقا لهذا الاعتقاد كان الناس يلوذون بالمعابد والأماكن

---

(١) سفر التكوين : الاصحاح الثامن والعشرون آية ١٦ ، ١٧ .

المقدسة الأخرى ويناموون هناك حتى تظهر لهم القوى العلويـــــة فى رؤياهم وتتحدث معهم ؛ اذ كان من الطبيعى ان يعتقدوا ان الآلهة أو أرواح الأشخاص المؤلهين أكثر ما تتمثل لهم فى تلك الأماكن المخصصة للعبادتها • فقد كان فى « أوروبوس » على سبيل المثال ، تلك المدينة التى كانت تقع فى « اتيكا » : محراب للعراف الـــذى كــــان يدعى « أمفياراوس » ؛ حيث تعود المستفسرون عن مسائل تخصــــــهم ، أن يذبحوا الكباش ضحية له وللاشخاص المؤلهين الآخرين ، الذين كانت قد نقشت أسماؤهم فى المحراب • وبعد ذلك يفترش هؤلاء جلــــــود الكباش ويناموون عليها . وهم يتوقعون أن يتمثل لهم هؤلاء الأشخاص فى رؤياهم • ويبدو أن أمكنة النبوءة هذه كان يزورها أساسا وبصــفة دائمة المرضى الذين كانوا يبحثون عن وسيلة لتخفيف آلامهم • فــــاذا توصلوا الى هذه الوسيلة من خلال رؤياهم التى يرونها فى تلك الأماكن المقدسة ، فانهم يعبرون عن شكرهم برمى قطع من النقود الذهبية أو الفضية فى النبع المقدس لهذا المكان • فقد أخبرنا « ليفى » أن معبد « أمفياراوس » القديم كان يقــــع فى مكان جميل بين الينابيـــــع والجداول • وقد تأكد هذا عن طريق استكشــــاف هذا المكان فى العصر الحديث • فهذا المكان عبارة عن وهدة صغيرة جميلة ليست بالمتسعة أو العميقة ، تقع بين تلال منخفضة تكسوها أشجار الصـــنوبر فى بعض أجزائها • ويجرى فى هذه الوهدة جدول صـــغير يشـــــق طريقه بين شواطىء تنمو على حافتها أشجار الدفل والدلب لمسافة ميل حيث يصل الجدول فى البحر • وعلى البعد تحول جبال « اوبونيا » الشـــــاهقة الزرقاء دون امتداد المنظر فيمـــا وراءهـــا • ولقد كـــانت مجموعات الأشجار والشجيرات التى تتكاثر عند جوانب الوهدة وتغرد عليهــــا الطيور . وتلك المروج الخضراء الممتدة عند أسفلها ثم هذا الســـكون وتلك العزلة ، بالاضافة الى أشعة الشمس المتوهجة فى هـــذا المكـــان المغلق ، كان كل ذلك ملائما لأن يجعل المكان ملاذا للمرضى الذين كانوا يتوافدون عليه ليلتمسوا النصيحة من اله الشفاء • حقا ان هذا المكان مغلق للغاية ، الى درجة أن الحرارة التى تشع فيه من شمس بـــــلاد

اليونان التى تخلو سماؤها فى مثل هذا الوقت من السحب ، بالاضافة الى خلو الوهدة من الهواء ، لم يكن يتحملها الزائر القادم من بلاد الشمال . أما بالنسبة للمواطن اليونانى ، فهو مكان مناسب له فيما يبدو . ومن المؤكد أن مكان النبوءة هذا لم يكن يفتح أبوابه للزائرين الا فى أشهر الصيف ، ذلك لأن الكاهن كان ملزما بأن يكون موجودا بهذا المكان مدة عشرة أيام على الاقل من كل شهر ، ابتداء من نهاية الشتاء حتى يبدأ موسم الحرث الذى يتفق مع ظهور نجوم الثريا . وفى هذه الفترة لم يكن يسمح للكاهن أن يتغيب أكثر من ثلاثة أيام دفعة واحدة . وكان على المريض الذى يجى لهذا المكان يلتمس النصيحة من الاله ، أن يقوم قبل كل شىء بدفع رسم قدره تسع أوبولات على الأقل (أى ما يساوى شلنا على وجه التقريب) من الفضة الخالصة لخزينة المعبد فى حضرة حافظ غرفة المقدسات ، الذى يقوم بتدوين اسم هذا الشخص واسم باده فى السجل العام . فاذا كان الكاهن موجودا ، فان من واجبه أن يصلى فوق الحيوان الذى قدم ضحية وأن يضع لحمه فوق المذبح . أما اذا كان الكاهن متغيبا ، ففى وسع الشخص الذى قام بتقديم الضحية أن يؤدى هذه الشعائر بنفسه . ويحصل الكاهن على جلد كل حيوان يقدم ضحية كما يحصل على كتف من كتفيه ، بوصفهما منحة له ؛ ولكنه لا يسمح بأن ينقل أى جزء من لحم الحيوان خارج هذا المكان . فاذا قام الشخص بهذه الاجراءات يسمح له بعد ذلك بالمبيت بهذا المكان حتى يستقبل النبوءة . وفى المهجع ينام الرجال والنساء منفصلين بحيث يفصل بينهما المذبح . وترقد النساء جهة الشرق فى حين يرقد الرجال جهة الغرب .

وقد كان هناك مهجع شبيه بالمهجع السابق كان مخصصا للمرضى الذين كانوا يأتون الى معبد « أسكولابيوس » الكبير الذى كان يقع بالقرب من « ابيداوروس » . وقد اكتشفت فى العصر الحديث آثار هذا المعبد التى تنتشر فى مساحة كبيرة ، وهى تكون معا إحدى الاثار الرائعة التى تشهد على حضارة الاغريق . وتقع آثار هذا المعبد فى

واد مفتوح جميل تحيط به المرتفعات الشاهقة التى تبرز جهة الشمال الغربى فى شكل قمم ناتئة من الصخور الجرداء ذات اللون الرمادى ، فى حين تبدو وجهة الشرق والجنوب فى شكل تخوم مستوية بعض الشىء وفى شكل منحدرات مخضرة . وتنتشر زراعة الذرة فى فصل الربيع فى أكثر أمكنة هذا الوادى انخفاضا التى تتخللها مجموعات من الاشجار والشجيرات . والاثر العام الذى يتركه هذا المكان فى النفس هو الاحساس بالسكون والرهبة ، ونوع من العزلة المحببة الى النفس ، وذلك لبعده عن المدن . وهناك وهدة متطرفة ذات جو رومانسى تغطيها الغابات الكثيفة ، تقود الطريق الى آثار « ابيداوروس » القديمة التى تقع فى موقع جميل فوق نتوءات صخرية تطل على البحر عبر سهل تغطيه حدائق الليمون وتحيط بها جبال عالية تكسوها الغابات . وقد تعود المرضى الذين سبق لهم أن ناموا فى معبد « أيسكولابيوس » فى « ابيداوروس » ، وشفوا من وهنهم عن طريق الكشف الذى ظهر لهم فى أحلامهم ، تعودوا أن يدونوا ذكرى هذا الشفاء على ألواح كانت توضع فى المكان المقدس بوصفها شاهدا ناطقا على قوة الاله القادر على الشفاء ، وتقديرا لهؤلاء الذين وضعوا ثقتهم فيه . وقد كان هذا المكان المقدس يزدحم فى العصر القديم بهذه الالواح التى اكتشف بعضها فى العصر الحديث . وقد أضفت هذه الكتابات سحرا عجيبا على هذا المكان الذى يشبه الى حد ما مستشفيات العصر الحديث .

ففى هذه الالواح نقرأ ، على سبيل المثال ، كيف ان رجلا كانت قد شلت أصابعه جميعا عدا اصبعا واحدا ، جاء لهذا المكان ليتضرع للاله ليشفيه . فلما وقع بصره على الالواح الموضوعة داخل المعبد وقرأ أخبار الشفاء العجيبة المدونة عليها ، بدأ الشك يساوره . على أنه نام فى مهجع المعبد ، فرأى فى منامه كأنه يلعب النرد فى المعبد . وبينما كان يرمى الزهر ظهر له الاله ووضع يده على يد هذا الشخص وبسط له أصابعه اصبعا بعد الآخر ثم سأله ما اذا كان لا يزال يشك فى الكتابات المدونة على ألواح هذا المعبد . فأجاب الرجل بأنه حقا لم يعد

يشك فيها • عند ذاك قال له الاله : « ولكن لانك قد شككت فيها من قبل ، فانك ستدعى باسم الكافر من الآن فصاعدا • ثم برح الرجل فى صباح اليوم التالى المعبد وقد برىء من سقمه • ومرة أخرى زارت هذا المكان امرأة أثينية عوراء تدعى « أمبروزيا » لتلتمس النصيحة من الاله فى مرضها • وبينما كانت تسير فى آرجاء المعبد ، قرأت أخبار الشفاء المدونة على ألواح المعبد وسخرت من بعضها اذ وجدتها مستحيلة بعيدة عن العقل ، وقالت لنفسها : « كيف يمكن للاعرج أن يصبح سليم الساقين ، وللاعمى أن يسترد بصره لمجرد رؤيتهما لرؤيا؟» ثم نامت فى المهجع وهى على هذا النحو من الشك ورأت رؤيا فى منامها ، بدا فيها الاله يقف بجانبها ووعدها بأنها سوف تسترد بصر عينها المفقودة ، على شرط أن تقدم للمعبد خنزيرا من الفضة كذكرى لكفرها البالغ • وبعد أن وعدت الاله أن تفى بذلك ، فتح الاله عينها وصب فيها البلسم ، فرجعت فى اليوم التالى الى بيتها وقد ارتد اليها بصرها • ومرة أخرى جاء الى هذا المكان رجل من فيساليا يدعى « بانداروس » على أمل أن يتخلص من الحرف «A» القرمزى اللون الذى وشم على جبينه • فرأى فى منامه كأن الاله يقف بجانبه وهو يربط فى جبينه برباط وأمره أن يهدى المعبد هذا الوشاح عندما يعود الى بيته فى اليوم التالى • فلما استيقظ « بانداروس » فى اليوم التالى ورفع الرباط عن جبينه ، ورأى أن الحرف «A» المشين قد زال من جبينه وانطبع فى الرباط • وهب الرباط الى المعبد ورحل • ثم توقف فى أثناء سيره فى أثينا ، وأرسل خادمه « اخيدوروس » الى « ابيداوروس » بمبلغ من المال ليقدمه منحة الى المعبد • ولكن « اخيدوروس » الذى كان له مثل هذه العلامة على جبينه لم يقدم النقود لخزانة المعبد ، وانما احتفظ بها لنفسه • ثم نام فى المهجع وهو يأمل أن يتخلص من هذه العلامة كما تخلص منها سيده • فرأى فى منامه

كأن الاله يقف بجانبه ويسأله عما اذا كان قد أخذ من « باندا روس » نقودا ليسلمها الى المعبد • ولكن الخادم أنكر أنه قد تسلم أى شيء من سيده ، ووعد الاله أن يرسم صورة لنفسه ويهبهـا للاله ، اذا ما أزال عنه هذه العلامة • وعند ذلك طلب منه الاله أن يأخذ رباط سيده ويربط به جبينه ، ثم يخلعه فى اليوم التالى عندما يغـادر مهجعه ، ثم يغسل وجهه فى النبع وينظر فى صفحة المياه • ففعل الخادم ذلك • ولكنه عندما كان ينظر بشغف الى الرباط متوقعا أن تكون العلامة قد طبعت عليه ، اذ به يجد أن الرباط لم ترسم عليه أية علامة • فأسرع الى النبع ونظر الى وجهه على صفحة الماء فوجد أن علامة « باندا روس» قد طبعت على جبينه الى جانب علامته •

وقد كان هناك كذلك معبد مقدس مخصص للنبوءة يقع عند شاطئ « لاكونيا » الموحش الصخرى ، حيث تهبط سلسلة جبال « تايجيتوس» فى شكل صخور جرداء الى البحر • وفى المعبد كانت الإلهة تكشـف عن رغباتها الى الناس فى أحلامهم • وقد اختلفت الآراء فيمن تكون الالهة هذه • أما الرحالة الاغريقى « باوسانياس » الذى زار هـذا المكان ، فقد اعتقد ان هذه الالهة هى « لـو » الهة البحر • ولكنه أقر أنه لم يتمكن من رؤية تمثال لها فى هذا المعبد ، حيث أن المعبـد كان ممتلئا عن آخره بأكاليل الزهر التى كان يقدمها فيما يبدو المتعبدون تعبيرا عن شكرهم لظهور الالهة لهم فى رؤياهم • ومما يؤيد ان الالهة « اينو » هى صاحبة هذا الضريح ، قربه من البحر الذى كانت تصطخب أمواجه بالقرب منه • على أن البعض الآخر كان يرى أنها «باسيفاى» الهة القمر • وقد كان هؤلاء يؤكدون رأيهم هذا ، بأن النـاس كانوا ينظرون الى القمر الفضى فى السماء قبل أن يأووا الى مضجعهم ثم ينظرون الى صفحة الماء ليروا انعكاس أشعة القمر الفضية عليـه • ومهما تكن هذه الالهة ، فان كبار قضاة اسبرطة كانوا يترددون على هذا المكان التماسا للنصيحة الإلهية من خلال رؤياهم • وقد قيل ان أحدهم قد رأى رؤيا أنذرته بحدوث كارثة تحل باسبرطة ، وقد حدثت هذه الكارثة المشهورة فى تاريخ اسبرطة •

وقد كان فى ايطاليا قديما مثلما كان فى بلاد الاغريق ، أمكنة للنبوءة كان يلجأ اليها من يريد أن يلتمس النصيحة أو يبحث عن السلوى من الالهة أو القديسين عن طريق الاحلام • فقد كان العراف « كالشاش » ، يعبد فى معبد « دريبيوم » فى « أبوليا » ، وكان كل من يذهب الى هذا المكان يلتمس النصيحة ، كان يذبح كبشا وينام على جلده • وكان هناك مكان مقدس آخر فى ايطاليا مخصص للنبوءة وهو معبد « فاونوس » ، وكان الناس يتبعون الطريقة السابقة فى التماس النصيحة عنده • فاذا ذبح الشخص كبشا ونام على جلده فانه يستقبل الرد عن سؤاله فى رؤياه • فإذا تصورنا ان هذا المكان المقدس الاخير كان يقع وسط غابة مقدسة كانت تقع بدورها بالقرب من شلالات «تيبور» ، حيث أن هناك من الاسباب ما يدعونا لهذا التصور ، فربما كان ظل الاشجار الرهيب وخرير المياه المتلاطمة يملآن نفس الحاج بالرهبة كما كانت تختلط بأحلامه • وربما كان المعبد الدائرى الذى مازال يشرف على هذه الشلالات هو هذا المكان بعينه الذى كان الاله يهمس فى آذان النائمين الورعين ، كما كان يعتقد الناس •

٣ ــ سلم السماء :

لقد كان المكان الصخرى المنعزل بين التلال الجرداء الذى نام عنده يعقوب ورأى فى منامه أن الملائكة تهبط وتصعد على سلم يصل بين السماء والارض ، يختلف كل الاختلاف عن أماكن النبوة التى كانت تقع وسط الطبيعة الجميلة فى كل من بلاد الاغريق وايطاليا • والاعتقاد فى وجود مثل هذا السلم الذى تستخدمه الكائنات الالهية أو أرواح الموتى يصادفنا فى بقاع كثيرة من انحاء العالم • فقد أخبرتنا «كنجلى» فى أثناء حديثها عن آلهة غرب أفريقيا فقالت : « اننا نجد فى كل مجموعة مجموعات الحكايات الشعبية الاهلية على وجه التقريب ، حكايات تروى عن زمن كانت فيه الالهة أو الارواح التى تسكن السماء على اتصال مباشر بالناس • وقد انقطعت هذه العلاقة بسبب أخطاء ارتكبها بعض الناس • فشعب « فرنادوبو » يحكى على سبيل المثال ، أنه فى زمن

من الازمنة لم تكن هناك متاعب أو اضطرابات على وجه الارض ، حيث كان هناك سلم شبيه بالسلم الذى يستخدمه الناس فى الحصول على ثمار جوز الهند من آعالى الشجر ، الا أنه كان طويلا للغاية ، وعن طريق هذا السلم كانت الالهة تصعد وتهبط لتشارك فى شئون الناس الدنيوية • ثم حدث أن تسلق ولد شقى هذا السلم حتى وصل الى ارتفاع شاهق عندما أبصرته أمه ، فصعدت فى أثره • فلما رأت الالهة ذلك تملكها الخوف من تصورها أن الاولاد والنساء سوف يغزون السماء ، فأسقطت السلم • ومنذ ذلك الوقت ترك الجنس البشرى ليقاسى الحياة وحده » •

ويروى « الترود جانيون » الذين يتحدثون اللغة البارية ويسكنون « سيليبس الوسطى » أنه فى الزمن القديم عندما كان الناس يعيشون جميعا معا فى مكان واحد ، كانت السماء ترتبط بالارض عن طريق زحافة • وذات يوم ظهر شاب وسيم ينتسب الى أصل سماوى يدعى « الشمس » وفقا لقولهم . وكان يركب جاموسة بيضاء • ووقع بصر هذا الشاب على فتاة تعمل فى حقل فأحبها ، وتزوجها وعاش معها فترة من الزمن • وفى أثناء ذلك أخذ يعلم الناس فلاحة الارض كما أمدهم بقطعان من الجاموس ، ثم حدث ذات يوم أن الطفل الذى ولد « للشمس » من زوجته ، سلك فى البيت سلوكا سيئا ، الامر الذى سبب ازعاجا للاب من قبل الجنس البشرى كله ، فعاد الى السماء عن طريق الزحافة • فلما حاولت الزوجة أن تصعد على الزحافة لتلحق به ، حطم الزحافة فهوت بالمرأة على الارض وتحولت هى والزحافة الى حجر • ومن الممكن رؤية المرأة والزحافة فى شكل تل جيرى يقع غير بعيد من نهر « ويمبى » • وهذا التل عبارة عن حبل ملتف يسمى التل الزحافة • ومرة أخرى نقرأ فى الحكايات الترودجانية أن نباتا بعينه يسمى « المروطان المجدول » كان لناس يتسلقون عليه ليصلوا الى السماء • وهذا النبات عبارة عن نبات متسلق شائك ينمو حول شجرة التين . وفى كل عام يضيف لفيفة جديدة الى لفائفه • واذا شاء شخص

أن يستخدم هذا النبات فعليـــه أن يضرب نسيجه المتين بهراوته حتى يوقظه من نومه • وعند ذاك يستيقظ النبات من سباته ويهتز ويأخذ بذرة من بذور الفوفل ويسأل الانسان عن مطلبـــه • فاذا طلب منه الشخص متوسلا أن يحمله الى السماء ، أرشده النبات أن يتخذ له مقعدا إما على أشواكه أو طرفه الاعلى ، ومن يحمل معه سبعة أوعية مصنوعة من الخيزران ويملؤها بالماء لكى تحفظ توازنه بثقلها • ثم يأخذ النبات فى الصعود وهو يتمايل يمنة ويسرى ، بينما يصب عليه المسافر بعض الماء فينتعش النبات ويسير فى خط مستقيم نحو السماء • فاذا وصل قبو السماء اندفع من خلال فتحة فى قبة السماء وتشبث بشوكه فى أرض السماء ، وانتظر فى صبر ريثما يقضى المسافر أمره فى السماء ، ويرغب فى العودة الى الارض • وبهذه الوسيلة يصعد بطل الحكاية الى الاجواء العليا ليحقق مأربا ، أليا كان هذا المأرب ، فاما انه يسعى الى استرداد قرط مسروق ، وأما أن يثير الزوابع والعواصف فى قرية سماوية ، أو أن يعيد الحياة لرجل مستعينا بحداد السماء •

ويحكى الباتاكيون سكان سومطرة أنه كان فى سالف الزمان فى وسط الارض ، صخرة تصل قمتها الى عنان السماء • وعن طريق هذه الصخرة كان الناس المفضلون مثل الابطال والكهنة يصـــعدون الى السماء • وقد كانت تنمو فى السماء شجرة تين ضخمة تمتد جزورها حتى تلمس الصخرة • وذات يوم قطع رجل هذه الشجرة بدافع الغيظ ، أو أنه اجتث جذرها ، لان زوجته التى كانت قد هبطت من السماء ، عادت اليها وتركته وحيدا • ويعتقد « البتسيميساراكيون » ســـكان مدغشقر أن أرواح الموتى تصعد الى السماء عن طريق سلم من الفضة • وهذا السلم تستخدمه الارواح السماوية فى تبليغ رسالات السماء الى الأرض •

على أن هناك سلالم حقيقية تختلف عن تلك السلالم المتخيلة ، ينصبها بعض الناس ليسهلوا عملية هبوط الالهة والارواح من السماء

الى الارض . فأهالى « تيمورلاوت » و « بابار » وجزر « ليتى » التى تقع فى الارخبيل الهندى يعبدون الشمس كل عام مع بداية موسم الامطار . بوصفها الاله الرئيسى الذكر الذى يخصب الارض التى تعد بدورها الهة . ومن أجل هذا العمل الطيب . يهبط الاله الى شجرة تين مقدسة . ولكى يسهل الناس له عملية الهبوط الى الارض فانهم يضعون أسفل شجرة التين سلما يتكون من سبع درجات ، وقد حفر على حاجزيه شكلين لديكين . وربما كان الغرض منهما أن يعلنا بصياحهما من خلال بوقين . وصول الاله . وعندما يقدم التوارد جانيون سكان سيليبس الوسطى التضحية للالهة عند بناء بيت جديد ، فانهم يضعون حزمتين من النباتات فى وضع منتصب ، تزينها سبعة أشرطة من قماش مصنوع من لحاء الشجر ، لتكون بمثابة سلالم يهبط عليها الالهة ليأخذوا أنصبهم من الارز والدخان والتبول والنخيل التى يخصصها الناس لهم .

كما تصور الناس فى الزمن القديم والحديث أن أرواح الموتى تصعد من الأرض الى السماء عن طريق سلم ، بل انهم كانوا يضعون سلالم مصغرة فى القبور لكى يسهلوا للأرواح عملية الصعود الى مكان البركة . ويكثر الحديث عن سلم فى كتابات أهرامات الجيزة ، وهى أقدم الكتابات المدونة فى العالم ، كان الملوك المصريون المتوفون يرتقون عليه الى السماء . بل انه قد عثر على سلالم فى قبور الفراعنة ، وربما كان الغرض منها مساعدة الأرواح عند الخروج من القبور ، وربما كان الغرض منها مساعدتهم على الصعود الى السماء ، كما كان يفعل المارك المتوفون وفقا لاعتقاد الناس . وتحرص قبيلة « ماناجار »وهى قبيلة محاربة فى « نيباول » ، على وضع سلالم فى قبور موتاهم تمكنهم من الوصول الى مساكنهم فى السماء . « فهم يضعون كتلتين من الخشب يبلغ طول كل منها ثلاثة أقدام ، وكل كتلة توضع على جانب من جوانب القبر . أما الكتلة الأولى فهى مقسمة الى تسع درجات مكونة شكل سلم تصعد عليه أرواح الموتى الى السماء . أما كتلة الحجر الثانية

قد وضعت لكى يحفر كل من حضر الجنازة خطا عميقا دليـــلا على حضوره الجنازة • وعندما يخرج خال المتوفى من القبر بعد دفـــن الجثة . فانه يودع المتوفى الوداع الأخير ويطلب منه أن يصـعد الى السماء عن طريق السلم الذى يقف معدا له » • على أنهم يحرصـون على سد الطريق بالأحراش الشوكية فى حالة اذا لم يشأ أن يكمل رحلته الى السماء وفضل أن يعود الى مأواه المألوف •

٤ ـ الحجـر المقدس :

على الرغم من الجفاف والجذب اللذين يحيطان « ببيت ايل » ، فقد أصبح فى العصور المتأخرة أكثر الأماكن المقدسة شهرة فى عهـــد المملكة الشمالية • فهناك أقام « يربعام » عبادة أحد العجلين الذهبيين اللذين صنعهما ليكونا آلهة لبنى اسرائيل ، وهناك شيد معبدا وأنشـا للكاهن منصبا • وفى عصر النبى « عاموس » أصبح المعبد تحت الرعاية الملكية الخاصة كما كان يعد كنيسة ملكية • ومنذ ذلك الحين ازدحـم المكان بالمتعبدين ، وتعددت المعابد ، كمـا روعيت الدقة فى اقامـــة الشعائر • وكان الناس يدفعون ضريبة العشر فى هذا المكان فى مقابل صيانة معابده • أما الأماكن المجاورة لهذا المكان فقد ازدحمت بمشاتى الأثرياء ومصـايفهم الكثيرة الأنيقة • وقد كانت يعقوب وحلمه تحكى للمتعبدين فى هذا المكان على سبيل تأكيد قدسيته البالغة فى القـدم ، عندما كان هذا المكان مهجورا بطبيعته ، ثم اكتسب على مر الزمـــن مظاهر البهاء والطهر • وطالمـا كان الناس يدفعون ضريبـة العشر للكاهن ، فانهم كانوا يعتقدون أنهم بذلك يوفون بالوعد الذىوعده الرب يعقوب فى هذا المكان ، عندما استيقظ فزعا من نومه المضـطرب ونذر بأن يقدم للرب العشر من كل شىء يمنحه آياه • كما ان الاعتقاد ساد فى أن الصخرة المنتصبة أو العمود هى بعينهما الى وضـع عليها يعقوب رأسه المجهد بعد تجواله فى تلك الليلة الخالدة ، وهى بعينها التى نصبها فى صباح اليوم التالى ذكرى لرؤياه • ذلك أن مثل هذه الأحجار المقدسة أو الأعمدة الصخرية كانت تعد فى العادة معابد مقدسـة عند

الكنعانيين والعبريين فى الزمن القديم • وكثيرا منها قـــد اكتشـــفه الباحثون الأثريون فى أماكنه الأصلية ، هؤلاء الذين أزاحوا الستار عن هذه « الأماكن العالية » (المعابد) فى العصر الحديث • بل انه يبدو أن النبى « هوشع » كان يرى ضرورة وضع حجر منتصب أو عمود ليكون ملحقا . لا غنى عنه . لأى مكان مقدس يخصص لعبادة يهوه • ولـــم يحكم الاسرائيليون على هذه الآثار الحجرية البسيطة بوصفها بقايـا عبادات وثنية . ودعوا الى هدمها ومنعوا تشييدها ، الا فى عصـــور متاخرة . وذلك بدافع تطور جوهر ديانتهم • وقـــد كانوا يعتقدون فى الأصل ان الرب كان يسكن حقا فى هذه الأحجار ، وكان احساســـهم بالرهبة من سكنى الرب لهذه الأحجار هو الذى يخلع عليها قدسيتها ، ومن ثم فقد أعلن يعقوب أن الحجر الذى نصبه فى « بيت أيل » ينبغى ان يكون بيت الرب •

وفكرة أن الحجر يسكنه الرب أو أية قوة روحية أخرى لم تكن غريبة على الاسرائيليين القدماء ، بل كان يشاركهم فيها كثير من شعوب العالم • فقد كان العرب الجاهليون يعبدون الأحجار ، بل أن الحجر الأسود مازال يحتل مكانة أساسية بين شعائرهم المقدسة • وكما هـــو معروف أن النبى أشعيا أو الكاتب المتأخر الذى كـــان يسمى باســـمه قد اتهم الاسرائيليين الذين كانوا يعبدون الأحجار الملساء المتآكلة بفعل المياه ، تلك التى كانت تقع فى الأخاديد الصخرية الجافة ، ويصـــبون عليها قربان الخمر ويقدمون لها الهبات — اتهمهم بالوثنية • وقد نقل عن الاغريق أنهم كانوا يعبدون الأحجار الطبيعية بدلا من الصـــور ، فقد كان هناك فى سوق « فاريا » الذى كان يقع فى « أشايا » ثلاثون حجرا مربعا كل منها ســـماه الناس باسم اله • ولما كـــان ســـكان « ثيسبيآى » فى « بويوتيا » يقدسون الهة الحب فوق كل الآلهـــة ، فقد كانت المدينة تزدان بالتماثيل التى شكلها المثالان « ليسيبوس » و « براكســـيتيلز » من البرونز والمرمر لتمثل اله الحب • ولكـــن ، الى جانب هذه الأعمال الفنية التى تشهد على روعة الفن الاغريقى ، كان الناس يقدمون الهبات لصنم غريب فى هيئة حجر خشن يمثل الالـــه •

وكذلك كان « الاينانيون » سكان « ثيسالى » يعبدون حجرا ويقدمون له الضحايا ويغطونه بشحم الضحية •

واذا كانت الأحجار الطبيعية تقدس فى جميع أنحاء العالم ، فانها لم تكن تقدس بشكل منتظم فى اى مكان من أنحاء العالم ، مثلما كانت تقدس فى « ميلانيزيا » • ففى جزر « بانك » وجزر «الهبريد الجديدة» الشمالية ، كانت الأرواح التى يقدم لها الطعام ترتبط فى أغلب الأحيان بأحجار تقدم عندها الهبات • وبعض هذه الأحجار كانت تتصل بعبادة بعض الأرواح القديمة ، كما أن الشخص بعينه الذى يمتلك لحسن حظه هذه الأحجار قد ورث طريقة استرضاء هذه الأرواح أبا عن جد • « على أنه اذا عثر شخص على حجر استرعى نظره لغرابته ، أو اذا عثر على أى شىء غريب آخر ، كان يكون أخطبوطا فى جحره أو سمك القرش أو حية أو سمكة الأنقليس ، تلك الحيوانات الغريبة لديه ، فانه ينثر النقود على الحجر أو عند المكان الذى يجد فيه هذه الحيوانات ثم يعود الى بيته وينام • وعند ذاك يرى فى منامه كأن شخصا يأخذ بيده ويطلعه على منحة الخنازير أو النقود التى تقدم له وذلك لارتباطه بالشىء الذى عثر عليه • وهذا الشىء يسمى فى جزر « بانك » « تانو ــ أولولو » أى مكان التضحية • أما الشىء الذى ينتظر الشخص أن يحصل عليه من وراء ذلك ، فهو النقود والخنازير • فاذا علم جيران هذا الشخص أنه قد حصل على هذه الهبة ، وأن ثروته قد تزايدت ، فانهم يأتون اليه ليستعلموا منه عن الشعيرة التى توسل بها الى الروح الذى تعرف عليه • ولكنه لايفشى هذه المعلومات الا الى ابنه أو ابن أخيه • فاذا مرض شخص ، فانه يقدم لشخص آخر يعرف بأنه يمتلك حجرا ذا قوة خارقة ، ويعتقد أن الروح الذى يسكن هذا الحجر قد أساء اليه المريض ــ مبلغا من المال وقطعة من جذر نبات الفلفل (جيا) الذى يستخدم فى صنع مسكر من المسكرات • ويقال عندئذ ان الرجل يقدم الضحية (أولولو) لصاحب الحجر • ثم يأخذ صاحب الحجر هذه الاشياء ويحملها الى المكان المقدس وينثرها هنا

ويتوسل للحجر وهو يقول : « دع هذا الشخص يشفى « • فاذا شفى هذا الرجل فانه يقدم ضريبة شفائه • فاذا رغب شخص فى اكتساب منفعة من الحجر ، أو أى شىء آخر له قوة سحرية ويعرف لدى الآخرين بمقدرته على زيادة ثروة المال أو صاحب الحجر أو الشىء المقدس يصطحب الشخص الى المكان المقدس ، حيث يوجد فيما يبدو عدد من الأحجار ، كل منها يحقق غرضا من الاغراض • وعند ذاك يقدم الشخص قدرا من النقود قد تبلغ المائة ويسلكها فى خيط يبلغ طوله بضع بوصات • ثم يقدم اليه صاحب الحجر الرئيسى حجرا من الأحجار ويقول له : « هذا نبات اليام » • فيدفع الرجل اثر ذلك نقودا • ثم يقدم له حجرا آخر ويقول : هذا خنزير برى » ، ويقول له عن حجر ثالث : « وهذا خنزير ذو أنياب » ، والرجل فى كل حالة يضع نقودا • والسبب فى هذا هو أن الروح « فوى » الذى يتصل بالحجر يحب النقود التى يسمح ببقائها فوقه أو الى جانبه • فاذا أدت الضحية غرضها ، فان الشخص المستفيد من ذلك يدفع لصاحب الأحجار والأرواح ثمن ذلك » •

من هذه الرواية المفيدة نعلم أن المكان المقدس فى هذا المكان قد ينشأ اثر رؤية شخص لحجر ذى شكل غريب يسترعى نظره • فاذا نام بجواره رأى رؤيا توحى له بأن هذا الحجر يسكن فيه روح قوى يعينه على قضاء حاجاته ، ومن ثم فانه وأبناءه من بعده يقومون بتقديم الهبات لهذا الحجر استرضاء له • واذا رأينا كيف أن مثل هذا المكان يظل يجذب المتعبدين اليه كلما ذاعت شهرته ، وبذلك تزداد موارده المالية من خلال الهبات التى يقدمها الشاكرون لصنيعه من ناحية ؛ وما يقدمه له الطامعون فى زيادة ثروتهم من ناحية أخرى • أفلا تعد المعابد الميلاليزية مطابقة فى هذه الحالة لما يروى عن « بيت ايل » ؟ اننا اذا استخدمنا طريقة أكثر قدما فى تفسير حكاية هذا المكان ؛ فربما رأينا فيها تزييفا كبيرا لروابط دينية أصلية •

وقد كان للاله « توريا » فى جزر « ساموان » ضريح فى شكل

حجر أملس يقع داخل غابة مقدسة • وقد كان الكاهن يحرص على أن ينتزع الأعشاب من حول الحجر وأن يغطيه بفروع الشجر لكى يستدفىء بها الاله • وعندما كان المتعبدون يقومون بواجب الصلاة فى ظروف الحرب أو المجاعة أو الوباء ، فان فروع الشجر كانت تجدد بعناية • ولم يكن أحد يجرؤ على أن يمس الحجر والا شع منه تأثير سام مميت يصيب من يقترب منه • وقد كان فى قرية ساموانية أخرى حجران مستطيلان أملسان موضوعان على قارعة الطريق ؛ وكان الناس يعتقدون أن هذين الحجرين هما والدا الاله « ساتو » ، الاله الذى يتحكم فى المطر • فعندما كان الزعماء وعامة الناس يتأهبون للخروج لممارسة رياضة صيد الحمام لمدة أسابيع ، فانهم كانوا يضعون السمك المشوى على الحجرين ويتوسلون للاله أن يمنحهم جوا معتدلا خاليا من الأمطار • فاذا رفض أحدهم أن يقدم العطاء للاله ، فان رفقاءه يغضبون منه • فاذا حدث بعد ذلك أن سقط المطر فى أثناء رحلتهم ، فانهم ينسبون اللوم له ويعاقبونه لأنه أغضب الاله المتحكم فى الجو وبذلك أفسد عليهم رحلتهم الموسمية • واذا كان الناس فى طريقهم للبحث عن نبات اليام البرى فى أوقات القحط ، فانهم يقدمون ثمرتين منه للحجرين شكرا للاله على فضله ، معتقدين بذلك ان الاله يجعل هذا النبات ينمو ، وأنه يهديهم الى أفضل الطرق التى يعثروا فيها على الدرنات الصالحة للأكل • كما اعتاد الناس عندما يمرون بهذين الحجرين وهم يحملون سلالا ممتلئة بالطعام ، ان يرموا قدرا من هذا الطعام للحجرين • فاذا أكلت الكلاب أو الفئران هذه الأطعمة فى أثناء الليل ، فانهم يعتقدون ان الاله قد تجسد لوقت محدد فى هيئة هذه الحيوانات لكى يأكل الطعام المقدم له •

ويهتم أهالى جزيرة تيمور ، احدى جزر الأرخبيل الهندى ، اهتماما كبيرا بأرواح الأرض التى تسكن الصخور والأحجار التى تلفت النظر بشكلها الغريب • على ان مثل هذه الصخور والأحجار قد لا تكون مسكنا للأرواح • ولهذا فانه اذا عثر شخص على أحد الأحجار

أو الصخور فان الذى يقطع باحتواء هذا الحجر على الأرواح ، هو أن يرى الشخص رؤيا بجانبه • فاذا ظهر له الروح فى الرؤيا وطلب منه أن يقدم له انسانا ضحية أو حيوانا أو نبات التنبول ، فانه ينقل هذا الحجر ويضعه بالقرب من بيته • ومثل هذه الأحجار تقدسها أسرات بأكملها أو قرى ، وأحيانا أحياء بأكملها • والروح الذى يسكن الحجر يحرص على رخاء الناس ، ويقدم له فى مقابل هذا الأرز ونبات التنبول ، وأحيانا الدجاج والخنازير والجاموس • وفى كثير من الأحيان تغرس الى جانب الحجر عصى مدببة تعلق عليها جماجم بعض الأعداء القتلى •

وفى « بوسوجو » وهو حى فى افريقيا الوسطى يقع الى الشمال من بحيرة فيكتوريا نيانزا ، يعتقد الأهالى أن « كل حجر كبير أو قطعة من الصخر يسكنها روح يمارس نشاطه فى القرية اما خيرا أو شرا • فكثير من الأمراض وبصفة خاصة الأوبئة ، تعزى الى الشر الذى تضمره أرواح الصخور • فاذا انتشر مرض أو وباء ، فان الروح يتملك شخصا من هذا المكان رجلا كان أو امرأة • وعند ذاك يتسلق هذا الشخص الصخرة وهو واقع تحت تأثيرها ويصيح بالناس ، فيجتمع الزعيم والأطباء بالناس ، ويقدمون نعجة أو دجاجة ضحية للروح ، ثم يتلو عليهم الشخص الطريقة التى يتمكنوا بها من ايقاف المرض • فاذا أفصح الروح عن رغبته للناس على هذا النحو ، فانه يترك الشخص ويسكن الصخرة مرة أخرى • وعند ذاك يعود الوسيط الى بيته ليمارس عمله العادى حيث يكف الروح عن استخدامه وسيطا مرة أخرى » • ومعنى هذا أن هناك فى « بوسوجو » كثيرا من الصخور والأحجار المقدسة التى تعد آلهة محلية • والى هذه الصخور والأحجار يذهب الناس فى أحوال وظروف مختلفة يلتمسون العون من الآلهة • ويقدم « الميكرينيون » سكان السودان الفرنسى جنوب النيجر ، الضحية للصخور والأحجار • ففى « سابو » يملك زعيم القرية حجرا كبيرا يضعه عند باب بيته • كما يقدم الشخص الذى لم يستطع أن يحصل على زوجة ، أو لم يمنح أولادا من زوجته أن يقدم

دجاجة ضحية الى الصخرة ، آملا أن يمده الحجر بالزوجة أو الأولاد • ويقوم هذا الشخص بتسليم الطير الى الزعيم الذى يقوم بذبحه وأكل لحمه • فاذا تحققت رغبة الرجل ، فانه يقوم بذبح دجاجة عند الحجر شكرا له على فضله •

وقد كان مكان النبوءة الكبير عند الهنود المانديين حجرا مساميا كبيرا يبلغ محيطه عشرين قدما • وكان هؤلاء البدائيون السذج يثقون ثقة عمياء فى أعمال هذه الصخرة المعجزة ، ففى كل ربيع وكذلك فى بعض شهور الصيف ، تقف وفود عند هذه الصخرة ويدخنون عندها فى وقار بالغ وهم يتبادلون الغليون فيما بينهم ثم يسلمونه الى الصخرة • وبعد أن يقوم الناس بهذه الشعائر فانهم يأوون الى غابة قريبة ويبيتون الليلة هناك ، تاركين الصخرة تتدبر الموقف وحدها • وفى صباح اليوم التالى تظهر نتيجة هذا التدبر فى شكل علامات محددة بيضاء ترتسم على الصخرة لا يصعب على بعض رجال الوفد أن يفكروا رموزها ، حيث انهم هم أنفسهم قد قاموا بنقشها على الصخر فى الظلام ، بينما كان رفقاؤهم يغطون فى نوم عميق • وقد روى عن الهنود الداكوتيين أن الرجل عندهم « يلتقط حجرا مستديرا أيا كان نوعه ويطلبه ويسير به بعيدا عن مسكنه ببضعة خطوات ، ثم يقوم بتنظيف هذا المكان فى محيط يبلغ قدما أو قدمين • وفى وسط هذا المكان يضع الحجر أو الآله كما يمكن أن يسميه ، ويقدم له بعض الدخان وبعض الريش ويتضرع للحجر كى يجنبه بعض الأخطار التى قد حلم بها أو تصورها •

وقد كان سكان اسكتلندا يعتقدون فى وجود جنية بعينها يطلقون عليها اسم « جرووااجاخ » • وهى فى نظر البعض ذكر ، وفى نظر البعض الآخر أنثى • ووظيفة هذه الجنية هى رعاية قطعان الماشية وابعادها عن الصخور • وهى تسكن الحقول التى ترعى فيها هذه القطعان ، كما تتردد على حظيرة كل سيد • وعلى هذا السيد أن يقدم

لها اللبن كل مساء فى تجويف صخرة معينة يحتفظ بها فى الحظيرة تسمى صخرة « جرووا'جاخ » • فاذا لم يفعل السيد هذا ، فإن أبقاره تمتنع عن ادرار اللبن ، كما أن القشدة لا تعلو سطح اللبن فى الاناء • ويقول البعض ان اللبن لا يسكب للجنية فى تجويف الصخرة الا عندما يرحل الناس وقطعانهم إلى المرعى الصيفى أو يعودون منه ، أو عند ما يمر شخص فى الحظيرة وهو حامل وعاء به لبن • ولاتزال توجد حتى اليوم فى « هولم » ، « ايست سايد » ، و « سكورى بريك » التى تقع بالقرب من «بورنترى » فى « يكى » تلك الأحجار التى كان يصب فيها قربان اللبن « لجرووا جاخ » •على أنه من المحتمل أن هذه الأحجار كانت تعد أوعية تلعق منها الجنية اللبن ، أكثر مما كانت تعد مساكن لها • ويتصور الاسكتلنديون هذه الجنية فى العموم فى شكل رجل وسيم أو امرأة وسيمة يتدلى شعرها الذهبى على كتفيها • وقد اعتاد المزارعون فى بعض الأحياء الجبلية فى النرويج حتى القرن الثامن عشر أن يحتفظوا بأحجار دائرية يغسلونها مساء كل خميس ويطلونها أمام النار بالزبد أو بأية مادة دهنية أخرى ، ثم توضع على القش النضر فى مكان الشرف• وفضلا عن ذلك فان هذه الأحجار تغمس فى الجعة فى فصول معينة من السنة ، حيث انها على هذا النحو بناء على تصور هؤلاء الناس ، تجلب الحظ والطمأنينة للناس •

وتذكرنا عادة طلاء الأحجار بالزبد عند النرويجيين بما صنعه يعقوب عندما صب الزيت على الحجر الذى نصبه إحياء لذكرى الرؤيا التى رآها فى « بيت ايل»•وتعد هذه الأسطورة أصدق دليل على تقديس الحجر ، ومن المحتمل أنها تشير الى عادة قديمة هى عادة طلاء الحجر الذى يوضع فى المكان المقدس بالزيت • ومن المؤكد أن عادة طلاء الأحجار المقدسة بالزيت تنتشر على نطاق واسع فى جميع أنحاء العالم • فقد كان هناك فى دلفى بالقرب من قبر « نيوبتوليموس » حجر صغير كان يصب عليه الزيت كل يوم ، كما كان ينشر عليه الصوف غير المغزول فى كل احتفال • ووفقا لما رواه « ثيوفراستوس » ، أنه كان من سمات

الرجل المتطير ، أنه اذا رأى أحجارا ناعمة عند مفترق الطريق ، فانــه يصب عليها الزيت من قارورة يحملها معه ، ثم يسجد أمامها ويصلى لها قبل أن يستأنف سـيره • كما يحـكى « لوسيان » عن رجـل يدعى « روتيليانوس » ؛ أنه كان كلما أبصر حجرا مطليا بالزيت ، أو له ننوء فى قمتهفانه كان يسجد أمام الاله الأصم ثم يقف أمامه مصليا لبعض الوقت • وفى مكان آخر تحدث هذا الكاتب الشاك نفسه فى سخرية عن تلك الأحجار المطلية بالزيت وتلك التى تكللها أكاليل الزهر التى كـان يعتقد فى أنها أماكن للنبوءة • أما الكاتب المسيحى « أرنوبيوس » فيقول فى معرض حديثه عن عبادة الأوثان فى أيامه بطريقة عميـــاء : « اننى تعودت كلما أبصرت حجرا مطليا بالزيت أن أعبده كما لو كانت فيـــه قوة تسكنه ؛ ثم أطريه وأتحدث اليه وألتمس الخير من تلك الكتلــة الصخرية الصماء » •

وتعبد قبيلة « واراتى » ؛ وهى قبيلة تسكن أحراش « كونكـان الشمالية » فى ولاية « بومباى » ، سيد النمور « واجهيـا » الـــذى يتصورونة فى شكل حجر غير منتظم مطلى بالرصاص الأحمر والزبــد النقى • وهم يقدمون له الفراخ الصغيرة والنعاج ، كما يكسرون عـلى رأسه ثمار جوز الهند ويصبون عليه الزيت • وفى مقابل هذه الهبات فانه يقيهم أخطار النمور ويمنحهم محصولا وافرا ، ويحفظهم من الأمراض • وفى العموم فان الجهلة والمتطيرون فى ولاية بومباى بصـفة عامة وفى أحياء « كونكان » بصفة خاصة يعبدون الأحجار الفتيشية ، حتى تبعد عنهم الشر وتشفى مرضاهم • ففى كل قرية توجد هذه الأحجار وكل حجر يسميه سكان القرية باسم اله من الآلة أو روح من الأرواح ، تلك التى يقدسونها فى ورع لاعتقادهم أنها تتحكم فى الشياطين والأشباح • فاذا انتشر وباء فى قرية من القرى فان الناس يقدمون لها من الأطعمــة لحم الدجاج والنعاج وثمار جوز الهند • وأحد هذه الأحجار المقدسة ؛ على سبيل المثال ؛ يوجد فى « بونا » ، وهو ملون بلون أحمر ومطلـــى بالزيت • وعند « التوداويين » الذين يسكنون تلال « نيلجهيرى » فى

جنوب الهند ، تهاجر قطعان البقر من مكان لآخر بين التلال فى فصول معينة من السنة • وقبل أن تحدث هذه الهجرة فإن الأهالى يصبون اللبن على الأحجار المقدسة التى توجد فى أماكن حلب اللبن ، كما أنهم يطلونها بالزبد • فهناك أربعة من هذه الأحجار على سبيل المثال فى « مودر » وهى ملساء ذات شكل مستدير ، ومن المحتمل أنها أصبحت على هذا النحو تتطلب اقامة الشعائر عليها بصفة مستمرة •

ويحتفظ رب كل أسرة فى جزر « كاى » التى تقع فى جنوب غرب « غينيا الجديدة » بحجر أسود عند رأس مضجعه • فاذا خرج فى حرب أو فى رحلة أو فى مهمة من المهمات فانه يدهن الحجر بالزيت حتى يكون النجاح حليفه • أما فيما يختص بقبيلة « بتسيليو » ، وهى قبيلة تسكن وسط مدغشقر ، فقد قيل « ان هناك أحجارا كبيرة فى جهات كثيرة من البلد تلفت نظر كل سائح عندما يقع بصره عليها ، وقد كساها الشحم ، أو سكب فوقها الزيت أو الدهن على أقل تقدير • ومن ثم فقد تصور هؤلاء المسافرون الغرباء أن هذه الأحجار تمثل آلهة قبيلة « بتسيليو » • ولست أعتقد أنه يمكن القول بأن هذه الأحجار تقدس أو تعامل معاملة الآلهة • فمما لا شك فيه أنها ترتبط بمعتقدات تطيرية • وفى ضوء هذه المعتقدات تنقسم الأحجار الى نوعين : أحجار تسمى « فاتوبيتروكا » ، وهى تلك التى يزورها النساء اللاتى لم يرزقن بأطفال ، وهؤلاء يحملن معهن بعض الدهن أو الزيت ليطلين به الحجر وهن يناجينه ويعدنه بأنهن سيعدن مرة أخرى لطلائه بمزيد من الزيت اذا رزقن بأولاد •

كما يقوم التجار كذلك بزيارة هذه الأحجار ويعدونها بأنهم سيعودون لطلائها مرة أخرى ، أو ليدفنوا عند قاعدتها قطعة من الفضة اذا لم تتعثر تجارتهم فى بيعها ، واذا ما بيعت بسعر مربح • وهذه الأحجار تكون فى بعض الأحيان مجرد أحجار طبيعية ، ولكنها فى أحيان أخرى ، وان كان هذا نادرا ، تمثل ذكرى قديمة للأموات » •

وهناك فى مكان بعينه يقع فى ممر جبلى يصعب على قطعان الماشـــية اجتيازه ، يقف كل رجل من قبيلة « أكامبا » التى تسكن فى شرق أفريقيا البريطانى ، أمام صخرة بعينها ويطلوها بالزبد أو الدهن •

ولعله من المعقول فى ضوء هذه الموازنات أن نفترض أنه كان يوجد فى بيت ايل حجر مقدس تعود المتعبدون منذ زمن بالغ فى القدم أن يصبوا فوقه الزيت ، لأنهم كانوا يعتقدون بحق أنه بيت الرب (بيت ايل) ، أى أنه كان مأوى لروح مقدس • ويعزى هذا الاعتقاد وتلك العادة الى الوحى الذى ظهر ليعقوب فى هذا المكان قبل أن يتكاثر نسله ويستوطن هذه الأرض بزمن طويل • على أننا لا نستطيع أن نحدد ما اذا كـانت قصة يعقوب تعد رواية متوارثة لحادثة حقيقية ، أم أنها وضعت لتفسير قدسية هذا المكان الذى كان يرتبط بهذه العادة من قبل • فمن المحتمل أنه كان بأرض كنعان كثير من هذه الأحجار المقدسة أو بيوت الأرباب ، وكان ينظر اليها جميعا على أنها مساكن لأرواح قوية ، ومن ثم فقد كانت تطلى بالزيت • ومن المؤكد أن عبارة « بيت ايـــل » • أو بيت الآله كانت اسما مألوفا لأحجار مقدسة من نوع معين كان يوجد فى فلسطين • وقد استعار الأغريق هذه العبارة وحوروها الى « بيتيل — وس » أو « بيتيل — لون » ، وهى تشير الى الأحجار المستديرة الســوداء التى تسكنها أو يتقمصها روح من الأرواح يتحرك فى الهواء وينطق بنبوءات فى صوت كالصفير فى وسع الساحر أن يترجمه • ومثل هذه الأحجــار كانت ترتبط بآلهة مختلفة سماها الأغريق « كرونوس » أو « زيوس » أو — « الشمس » الى غير ذلك من أسماء الآلهة • وعلى كل فاننـــا نستخلص من وصف هذه الأحجار أنها لم تكن بالكبيرة بحيث كان يسهل حملها • وقد كان أحدها فيما قيل ، مستديرا استدارة كاملة وكـــان قطره يبلغ شبرا وإن كان هذا الحجم يزداد أو يقل بمعجزة ، كما كان لونه يتغير من الأبيض الى الأرجوانى • فاذا نقشت عليه الحروف فانها تبرز فى هذا اللون الأرجوانى • ومن المحتمل من ناحية أخرى أن الحجر

المقدس الذى ينسب الى يعقوب فى « بيت ايل » كان من هذه الأحجار الصلبة المنتصبة ، أو أحدى الأعمدة الخشنة التى كان العبريون يسمونها « ماسيبوث » ؛ وهى تلك الأحجار التى كانت ملحقة ، كما رأينا ، بمعابد الكنعانيين والإسرائيليين المبكرة • وقد اكتشف فى فلسطين فى العصر الحديث نماذج من هذه الأحجار فى حالة جيدة ، ونخص بالذكر منها ما عثر عليه فى معابد جيزر وتعنك • وفى بعض هذه الأحجار حفرت الحجور ــ إما فى قمتها أو فى جانبها • وربما كان الغرض من هذه الحجور هو صب الزيت أو الدم فيها • ويمكننا أن نفترض أن الحجر المقدس الذى قيل إن يعقوب قد نصبه فى بيت إيل وطلاه بالزيت ، كان شبيها بتلك الأحجار • ومن المحتمل كذلك أن نسل يعقوب كان يتقرب الى هذا الحجر على هذا النحو طيلة عصور طويلة من بعده •